الفصل الأول

الحياة

١

فى حجر ربة الشعر

حينما لجأت رَبَّةُ الشعر إلى مصر فى القرن الماضى ، تعيش تحت سمائها ، وتبعث فيها حياة فنية أصيلة ، يفوح شذاها ، ويتأرَّج عَبيرها على لسان البارودى وما كان ينظم من شعر يوقظ النفوس ويحيى القلوب . فى هذا الحين انتخبت رَبَّةُ الشعر شوقى ، وأهدته إلى مصر سنة ١٨٦٩ وأعدَّت له كل شىء ليكون شاعراً ممتازاً ، وما زالت تحمله فى حجرها ، وترعاه بعنايتها ، حتى تهيأت له شاعريته . وكان أول ما أعدتْ له ميراث دمه وأعراقه ، فقد جاءت به من عنصر تركى وآخر شركسى ، وعنصر يونانى وآخر عربى كردى ، فتآزرت فيه هذه العناصر ، وأخرجت منه شاعراً ممتازاً ، لعل مصر لم تظفر بمثله فى عصورها المختلفة

واشتراك هذه العناصر فيه يدل على أنه ليس مصريا خالصاً ، هو مصرى الموطن ، أما الآباء والأجداد فليسوا مصريين ، وأول من نزل منهم مصر جَدُّه لأبيه ، وهو الذى سُمِّىَ باسمه « أحمد شوقى » قدم هذه الديار فى عهد محمد على ، فضمه إلى حاشيته ، وكان يحسن العربية والتركية ، ومنه ينحدر إلى شوقى الدم الكردى العربى والشركسى . وتوالت الأيام وهو يتنقل فى المناصب العالية حتى أصبح أميناً للجمارك المصرية فى عهد سعيد (باشا) . وتوفى وهو فى هذه الوظيفة عن ثروة واسعة عاش فى ظلها علىٌّ والد شوقى وشوقى نفسه

وجاء بعد هذا الجدِّ إلى مصر جَدُّ شوقى لأمه ، فقد دخل البلاد شابا لعهد إبراهيم (باشا) واسمه أحمد حليم النجده لى نسبة إلى قرية بالأناضول

تسمى «نجده» فهو تركى . وأُعجب به إبراهيم(باشا)على ما يظهر ، فقربه منه ، وزوّجه معتوقة يونانية له تسمى « تمراز » ، أُسِرت فى حرب المورة ، وهى بنت عشر سنوات ، ونشأت فى القصر بين وصيفاته . وما زال يتقلد المراتب السامية فى الدولة ، حتى أصبح وكيلا لخاصة الخديوى إسماعيل . وتوفى وهو فى هذه الوظيفة ، فنقل إسماعيل مرتبه إلى أرملته .

وقد اجتمعت هذه الأصول المختلفة[1] ليخرج منها هذا الفرع المونق ، وكلنا نعرف شهرة العرب واليونان قديماً بالشعر والشاعرية ، وإن ازدواج هذين الأصلين فى شاعر ليؤذن أن ينال قمة الشعر ، بل أن يبلغ فيه عنان السماء . وليس هذا كل ما أهدته أو هيأته ربّة الشعر لشوقى ، فقد هيأت له عينان حالمتان ، أصابت أعصابهما بشىء من الاختلال ، فهما لا ترتكزان ودائماً تصعّدان فى السماء .

وكانت جدته اليونانية مشغوفة به تقوم على تربيته ، وكانت منذ عصر إبراهيم على صلة وطيدة بالقصر ، فدخلت بحفيدها يوماً على الخديوى إسماعيل ، وكان لا يزال فى السنة الثالثة من عمره ، ونظر إليه إسماعيل ، فوجد بصره مشدوداً إلى السماء ، لا يسقط على بَسيط الأرض ولا ينزل إليها ، فطلب بَدْرَةً من الذهب ، ونثره على البساط عند قدميه ، فتحول شوقى إليه ، وأخذ يجمعه ويلعب به ، فقال إسماعيل لجدته : اصنعى معه ذلك حتى يتعوّد النظر إلى الأرض ، فأجابت إجابتها المشهورة : « هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك » فقال : جيئى به إلىّ متى شئت ، حتى أنثر الذهب تحت عينيه ، فإنى آخر من ينثر الذهب فى مصر !.

وفى إجابة الجدة للخديوى إسماعيل ما يحمل أروع الدلالة على شاعرية خصبة كانت مكتنّة فيها ، وهى جدته التى حملت إليه الروح اليونانى ، وكانت تحبه وتؤثره ، فكفلته ، وقامت على تربيته الأولى ، وكانت منعمة موسرة ، تعيش بباب إسماعيل ، فعاش معها الطفل حيث الترف والنعيم

وإن فى الذهب الذى فتحت ربّةُ الشعر عَيْنَى شوقى عليه فى سنته الثالثة

---

(١) انظر فى هذه الأصول مقدمة شوقى للجزء الأول من ديوانه المطبوع فى سنة ١٨٩٨

ما يشير فى وضوح إلى الجو المترف الذى مكث يتنفّس فيه طول حياته ، فقد وضعته ربّة الشعر منذ نعومة أظفاره فى مهاد من النعيم ، وما زالت تدلله فى هذه المهاد حتى آخر حياته . وشوقى من هذه الناحية نشأ نشأة أرستقراطية ، ليس فيها شىء من الديمقراطية وما يتصل بالديمقراطية من حياة الشعب المصرى ، وسنراه يقترب أو يحاول الاقتراب من هذا الشعب ، لكنه على كل حال نشأ فى بُرْج ذهبى . وربما كانت الحسنة الوحيدة لهذا البُرْج أنه أتاح له أن يخلص للشعر ويفرغ له ، ولا يشغل باله بشىء سواه .

واختلف شوقى منذ الرابعة إلى مكتب الشيخ صالح ، ثم انتقل منه إلى مدرسة المبتديان ، فالتجهيزية . وفى هذه المدرسة أظهر تفوقاً ونبوغاً ، فمُنح المجانية مكافأة له ، وتخرج فيها وعمره خمس عشرة سنة ، وقد تيقظت بوضوح فيه موهبته الشعرية ، وأخذ يصوغ بها بعض المعارف الجيولوجية والجغرافية من مثل أرجوزته :

إفريقيـا قسم من الوجودِ فى شكله أشبهُ بالعنقودِ

ومن غير شك كان يختلط فى أثناء ذلك ببعض العناصر الديمقراطية من الشعب ، ولكنه كان اختلاطاً محدوداً ، إذ كان لا يلبث أن يعود إلى بيئته الأرستقراطية ، فتُضعف من شأن هذه الديمقراطية المكتسبة ، وترده إلى أرستقراطيته الأصيلة .

وواضح أنه أخذ فى تعلمه الطريق المدنى ، ولم يأخذ الطريق الدينى ، ونحن نعرف أنه كان بمصر حينئذ نوعان من التعليم : التعليم الدينى الشرقى فى الأزهر وكان خاصًّا بالتراث الإسلامى وكان يتأثر بالقرون الوسطى وصورة العلوم فيها من لغة وطب وفلسفة وغير ذلك وهى صورة شاحبة ضئيلة ، والتعليم المدنى الغربى فى المدارس ، وهو تعليم يستمد من أوربا ومن كتب العلم والأدب فيها ، وقد بدأ فى عصر محمد على ، ثم خمد فى عصر سعيد وعباس ، ثم عاد إلى النشاط والازدهار فى عهد إسماعيل .

وفى هذا الاتجاه من التعليم المدنى الأوربى سار شوقى ، وحينما أتم تعليمه الثانوى ألحقه أبوه بمدرسة الحقوق ، ليدرس القانون ، ووصفه أحمد زكى حين دخل هذه المدرسة ، فقال : « كان فى جملة الوافدين سنة ١٨٨٥ فتى نحيف ، هزيل ، ضئيل ، قصير القامة ، وسيم الطلعة تقريباً ، فتى بعيون متألقة تحقيقاً ، ولكنها متنقلة كثيراً ، فإذا نظر إلى الأرض دقيقة واحدة فللسماء منه دقائق متمادية ، وإذا تلفّت صوب اليمين فما ذاك إلا لكى يرمى ببصره نحو الشمال ، وهو مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة هادئ ساكن وادع ، كأنما يتحدث بنفسه إلى نفسه ، أو يتلاغى مع عالم من الأرواح . ما كان يلابسنا فيما نأخذ فيه من اللهو والمزاح ، ولا يتهافت معنا على تلقف الكرة بعد الفراغ من تناول الغداء ، أو حينما نتنفس الصعداء لانتهاء مواقيت الدراسة [1] » .

وهذه الصورة التى رسمها أحمد زكى لشوقى تؤكد معانى أخرى تتصل بشاعريته ، فهو يلاحظ أنه كان شعلة من الحركة المضطربة المتنافرة ، وهكذا هو فى شطحات بصره ، أما بعد ذلك وفى أعماقه فهادئ ساكن وادع ، وهو مع هذا غافل عما يجرى حوله مشغول بنفسه ، لا يلعب مع اللاعبين ، ولا يلقف الكرة مع اللاقفين .

فشوقى مع إخوانه وزملائه فى الحقوق ، وهو لا يحس بهم ، وكأنما شغلته ربّة الشعر عنهم ، فهو يبحث عنها فيما حوله ، يصوّب نظره إليها يميناً ، فلا تلبث أن تزوغ منه فى الشمال ، فيرمى به وراءها ، فيجدها قد حلّقت فى السماء ، فيرفع بصره إليها ، فلا تلبث أن تغيب ، لتبدو له لامعة مشرقة بإزائه . وكأنما كان ذلك يزيد فى تألق بصره ، أو قُلْ كأنما كان شوقى مشغولا عن رفقائه وما هم فيه من لهو ولعب بحركات مضطربة مختلطة متشابكة كانت تأتيها ربّةُ الشعر من حوله بأجنحتها حين تصطفق ، فتملأ أذنه برفيف وضجيج ، ولا تترك له فسحة ، كى يلم شتات نفسه ، ويندمج فى صحبه ،

---

(١) ذكرى الشاعرين (حافظ وشوقى) طبع مطبعة الترقى بدمشق ص ٣٢٦ .

إذ كانت تأخذ عليه كل طريق .

واستجاب شوقى إليها ، فانعزل عن أخدانه ، ومكث ينتظر ما توحى به إليه ، وما تودعه أذنه وعينيه، من همسات وحركات ورُؤًى حالمة . وكان النبع فى أثناء ذلك يفيض والنور يسيل ، فإذا الشيخ محمد البسيونى البيبانى أستاذه فى اللغة العربية ، وكان شاعراً فصيحاً ، تبهره شاعريته ، ويجلس منه مجلس التلميذ من أستاذه .

وكان هذا الشيخ يدبّج القصائد الطوال فى مدح الخديوى توفيق كلما حلّ موسم أو أهلّ عيد . فكان قبل أن يرسلها إلى القصر لتنشر فى صحيفة الوقائع المصرية وغيرها من الصحف العربية يعرضها على شوقى ، فما يزال يُصْلح له فيها ، فيمحو هذه الكلمة أو تلك، ويعدّل هذا الشطر أو ذاك ، ويُسْقط بعض الأبيات ، وأستاذه مغتبط به فرحٌ لصنيعه .

ولهج الشيخ بتلميذه والثناء عليه ، ولم يلبث التلميذ أن سار فى الدَّرْب الذى سار فيه أستاذه ، فكان ينشىء القصائد فى مديح الخديوى توفيق . وكان قد أُنْشِئ فى الحقوق قسم للترجمة ، فانتسب إليه شوقى ، وظل فيه سنتين ، مُنح فى آخرهما شهادته النهائية .

وبذلك ختم شوقى حياته التعليمية ، وهى حياة أوربية فى جملتها ، وكان يلتقى بها تيار من الأزهر ، مَثَّله أستاذه البسيونى ، إذ كان من علماء الأزهر المعدودين . و كفل له تخرجه فى قسم الترجمة أن يتقن الفرنسية ، وكأنما كانت رَبَّة الشعر تُرْهص بذلك لما سيقوم به فى المستقبل من الاحتذاء على بعض النماذج الغربية فى شعره .

وإذا كانت دراسته فى المدارس جعلته يحذق العربية والفرنسية فإن بيئته الخاصة ، بيئة منزله ، جعلته يحذق التركية . وبذلك كان يحسن لغات ثلاثاً فى مطلع شبابه ، وعَقّدت هذه اللغات فى ثقافته ، واصطلحت فيما بينها على تأليف طبيعته .

وخرج شوقى من قسم الترجمة فى سنة ١٨٨٧ ، وهو لا يتصف بالشاعر

فحسب ، بل هو شاعر الخديوى توفيق ، فقد نسج على منوال أستاذه البسيونى فى التقرب إلى القصر وصاحبه ، وأتاح له على مبارك (باشا) فرصة لقائه ، فهنّأه بتخرجه ، وهو يستلم أذيال ثوبه ويقبلها . ولم يلبث أن عيّن أباه عليا — وكان مبذراً متلافاً — مفتشاً فى الخاصة الخديوية ، ثم عينه من بعده .

والإنسان لا يطلع على هذه الفترة من حياة شوقى التى سجلها فى مقدمته للطبعة الأولى من شوقياته سنة ١٨٩٨ م حتى يأسى له ، فقد جار عن قصْد السبيل ، إذ رضى أن يكون موظفاً بالقصر ، وأن يكون تابعاً للخديوى توفيق ، وأن يستذلّ شاعريته له فى مدائحه ، غير أن ربّة الشعر كانت لا تزال ترعاه ، ففكّت عقاله من هذا السجن الذى دخله راضياً مرضيا ، فقد أوحت إلى سجّانه أن يرسله إلى فرنسا ليكمل ثقافته ، فلم يحُلْ عليه حوْل فى الوظيفة ، حتى رأى توفيق أن يوفده فى بعثة ، وترك له اختيار ما يريد من العلوم ، فاختار الحقوق أو دراسة القوانين ، لظنه أنها ذات واشجة قوية بالأدب ، وأشار عليه توفيق أن يجمع بينها وبين دراسة الآداب الفرنسية .

وسافر شوقى على نفقة الخديوى ، وكتب إلى مدير البعثة المصرية فى فرنسا ليهتم به ، فلما وصل إلى مرسيليا رآه فى استقباله ، وأخبره أن الخديوى كتب إليه أن يقضى فى مونبلييه عامين ، وفى باريس عامين آخرين ، والتحق شوقى بمدرسة الحقوق فى مونبلييه . ولما انقضت السنة الأولى حاول أن يعود إلى مصر لرؤية أهله فمنعه الخديوى ، حتى لا يُضيع من سنواته الأربع فترة بعيدة عن فرنسا ، فظل هناك ، وتوالت عليه الدعوات من رفقائه الفرنسيين فى المدرسة ، فلبى دعواتهم ، وجاس خلال ديارهم ، يتصفح معالم الحضارة الغربية

ولم يكد ينتهى من السنة الثانية حتى أرسل إليه مدير البعثة فى باريس أنه ذاهب مع الطلبة فى رحلة إلى إنجلترا لقضاء أكثر أيام العطلة بها ، وأن الخديوى كتب إليه أن يصطحبه معه ، فسافر إلى باريس على عجل . ومنها سافروا جميعاً إلى إنجلترا حيث قضوا شهراً يتفرجون على لندن وغيرها من المدن هناك .

وفى السنة الثالثة وهو فى باريس أصيب بمرض شديد كان فيه بين الحياة والموت ، ولما تماثل للشفاء أشار عليه الأطباء أن يقضى بعض أيام تحت سماء إفريقية ، فاختار الجزائر ، ومكث فيها أربعين يوماً ، ثم عاد قافلا منها إلى باريس ليستأنف دراسة الحقوق ، ولم يفوّت مرضه الفرصة عليه ، فقد استطاع أن يحصل على إجازته النهائية فى آخر السنة الثالثة ، وظل هناك ستة شهور ، يختلف فيها إلى مسارح باريس ، ثم رجع إلى وطنه ، وهو « نِضْوُ فراق ، تهزه إليه الأشواق » .

وليس من ريب فى أن هذه البعثة كانت نعمة على شوقى ، وكأن ربّة الشعر لم تنسه ، فقد أخرجته من سجنه ، وانطلقت به تطوف أركان البحر المتوسط ، وتملأ عينيه بمفاتن الحضارة فى فرنسا وإنجلترا ، كما تملأ عقله وروحه بالمدنية الغربية والآداب الفرنسية ، وهو فى أثناء ذلك يتنقل بين مونبلييه وباريس ولندن ، ويشاهد المسارح ودور الأوبرا ويقرأ الصحف والكتب القانونية والأدبية ، وقد قرأ لفيكتور هيجو ولامرتين ودى موسيه وغيرهم من شعراء فرنسا مثل لافونتين ، وبذلك رأى رأى العين عوالم جديدة فى الشعر والحضارة.

على أنه ينبغى أن نعود فنلاحظ أن شوقى لم يخلع عنه فى فرنسا القيود التى قيد بها نفسه فى مصر ، ونقصد القيود التى قيد بها أجنحته إزاء القصر ، إذ نراه لا يزال يرسل بمدائحه فى الخديوى توفيق من باريس . وكأن الرحلة الطويلة التى هيأتها له ربّة شعره لم تستطع أن تفك عنه الخيوط التى حاكها الخديوى من حوله ، فاستمر يتحجل فى هذه الخيوط ، وكلما نقضتْ ربّةُ شعره طائفة منها عاد يغزلها من جديد .

٢

فى القصر

رجع شوقى إلى مصر فى سنة ١٨٩٢ وكان قد توفّى توفيق وخلفه عباس الثانى ، فعيّن فى القصر بقلم الترجمة ، وأخذ يعيش فى منزل أبيه بحى الحنفى معيشة رتيبة ، لم يقطعها فى أول حياته سوى سفره ممثلا للحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين الذى عُقد فى مدينة جنيف بسويسرة سنة ١٨٩٤ وكانت هذه الرحلة فرصة طيبة للشاعر حتى يجتلى المناظر الطبيعية البديعة هناك . ولما انفضّ المؤتمر سافر إلى بلجيكا لمشاهدة عاصمتها وزيارة معرض فى إحدى مدنها.

ولم تَرُجْ سوق شوقى عند عباس أول الأمر ، ويوضح ذلك داود بركات ، فيقول : « إن الخديوى عباساً كان يهمل شوقى بعض الإهمال لاعتقاده ، بل لأنهم أدخلوا على نفسه ، أن أحمد شوقى شاعر فقط وأنه هو بحاجة إلى رجل سياسى ، لما كان بينه وبين الإنجليز من الكفاح والجلاد ، فاجتمع لإزالة هذا التوهم من صدره المرحومون : بطرس غالى (وقد كانت به نزعة للأدب والأدباء) وبشارة تقلا (صاحب جريدة الأهرام) ومصطفى كامل . وكان بطرس يطلب من الخديوى أن يسمح له بتوظيفه شوقى فى الخارجية بضعف مرتبه الذى كان يتناوله من قلم الترجمة فى السراى . وكان بشارة تقلا يعرض على سموه مثل هذا العرض ليوليه تحرير الأهرام ، وتأييداً لذلك وضع شوقى فى مكانه من الأدب وإمارة الشعر [١] ، إلى أن قربه الخديوى وناط به كثيراً من المهام فقام بها خير قيام ، فأولاه ثقته ، وقدمه على جميع رجاله [٢] »

وكنا نتمنى لو أن الخديوى عباساً رضى عن خروج شوقى من القصر ، وأسلمه إلى بطرس غالى أو إلى بشارة تقلا ، إذن لتغير وجه شعره ، ولما عاش

---

(١) يشير إلى إشادة الأهرام بشوقى حينئذ وتلقيبها له بأمير الشعراء .

(٢) ذكرى الشاعرين ص ٣٦٦ .

من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩١٤ حبيس المدائح يتغنى بعباس وأعمال عباس فى المواسم والأعياد .

وعبثاً حاولت رَبَّةُ الشعر فى هذه الحقبة الطويلة أن تُنبت فى أجنحته ريشاً يستطيع به أن يرتفع عن الأرض ويحلق فى السماء ، وكأن أجنحته لم تكن حينئذ من المتانة والقوة بحيث تحمل هذا الريش ، فقد أصبح شوقى من الطيور الداجنة الأليفة التى لا تستطيع ارتفاعاً ولا تحليقاً فى الجو ، والتى تنتظر الحَبَّ يُلْقَى إليها من صاحبها ، فتعيش به هانئة راضية.

ولم تقف المسألة عند حدِّ الحبِّ ، بل تجاوزته كثيراً ، فإن عباساً قرَّبه منه ، وجعله رئيسا لقلم الترجمة كما جعله موضع ثقته ومفزع مشورته ، وقدمه على جميع رجال حاشيته فى القصر ، وبذلك كان نافذ الكلمة مسموع الرأى ، بل أصبح كأنه صاحب الأمر والنهى ، يقصده طلاب الحاجات ، وما أكثرهم ؛ ،وتَعْنُو له وجوه الوزراء ومن يطمعون فى الرتب والألقاب .

وليس من شك فى أن شوقى فى أثناء هذه الحقبة من حياته كان يعيش بعيداً عن الشعب ، فهو فى القصر أو فى برجه العاجى ، لا يفكر إلا فيما يفكر عباس فيه ، وكأنه دوَّارة الريح ، فهو يدور مع صاحبه حيث دار ، وكان فى عباس طموح واندفاع ، فصارع الإنجليز وغاضبهم ، ووقف شوقى فى صفه يغضب عليهم مع غضبه ، ويرضى مع رضاه .

وعلى هذه الشاكلة كان شوقى يعيش لعباس، وكان يُقْبِل على من يقبل عليه ، ويزورُ عمن يزور عنه ، فمن ذلك أن عباساً تفقد الجيش المصرى فى وادى حلفا ، وانتقد نظام إحدى الفرق ، فثار كرومر ، معتمد إنجلترا فى مصر ، وعدَّ ذلك إهانة لكتشنر قائد الجيش ، وطلب الاعتذار . وكان رئيسَ الوزارة المصرية حينئذ رياض ، فبرَّأ نفسه لدى المعتمد البريطانى مما صنعه الخديوى ، وما زال بأميره يلحُّ عليه أن يعتذر ، أو يصنع شيئاً من شأنه أن يرضى كتشنر والإنجليز ، فأرسل إلى كتشنر برقية يحمد له نظام الجيش! . ووقف رياض يلقى خطاباً بمناسبة افتتاح مدرسة محمد على الصناعية ،

فأشاد باللورد كرومر ، وكفـّر بعباس ودولته ، فلما أسفر الصباح طلع شوقى على الناس بقصيدة أنّبه فيها وأنحى عليه بالتعنيف الشديد ، وفيها يقول :

كبيرَ السَّابقينَ من الكرامِ　　　برَغْمى أن أنالك بالمَلامِ
لقد وجدوك مَفْتوناً فقالوا　　　خرجتَ من الوقار والاحتشامِ
وقال البعضُ كيْدُك غيرُ خافٍ　　　وقالوا رَمْيَةٌ من غير رامِ
وقيل شَطَطْتَ فى الكُفران حتى　　　أردت المُنْعِمين بالانتقامِ
غمرتَ القومَ إطراءً وحَمْدًا　　　وهم غمروك بالنعم الجِسام
خطبتَ فكنت خَطْبًا لا خطيباً　　　أُضِيف إلى مصائبنا العِظام
لَهِجْتَ بالاحتلال وما أتاهُ　　　وجُرْحُكَ منه،لوأحْسَسْتَ،دامِ
وما أغناهُ عمّن قال فيهِ　　　وما أغْناكَ عن هذا التَّرامى
أَحَبَّتْك البلادُ طويلَ دهرٍ　　　وذا ثَمَنُ الولاءِ والاحترامِ

وأى مصيبة على أمة أكبر من أن يخونها أحد بنيها وأفلاذ كبدها ، ويرتمى فى أحضان المحتل الأجنبى ، لا يـَرْعَـى فى ذلك ذمة ولا عهداً ولا وطناً ، وإنما يرعى النعم الجسام التى تملأ صدره وبطنه ناراً . ومع ذلك فشوقى لم يغضب لوطنه ، ولم يغضب لشعبه ، وإنما غضب لأميره ، فلم يكن يفهم حينئذ حق الفهم سوى سلطانه ، ولم يكن يدور بخلده سوى القصر الذى يعيش فيه ، قصر الأسرة العلوية الذى يتربع عباس على أريكته .

وحدث أن نُقل اللورد كرومر من مصر فى سنة ١٩٠٧ فأقيم له حفل وداع وكان الأمير حسين كامل حاضراً ، وخطب كرومر ، وندد بإسماعيل وعصره ، وذم المصريين وحمل عليهم ، لأنهم لم يقدروا مِنَن الاحتلال الإنجليزى ولا ما طوّقهم به! . وكبُـرَتْ كلمات تخرج من فمه! وثار شوقى للأسرة العلوية ، فنظم قصيدة حماسية ، يقول فيها :

أَيَّامُكُمْ أَم عَهْدُ إسماعيلا أَم أَنتَ فرعونٌ يسوسُ النيلا
أَم حاكمٌ فى أَرض مصر بـأَمرهِ لاسائلاً أَبدًا ولا مَسْئولا
يا مالكاً رِقَّ الرِّقاب ببـأْسهِ هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا
لما رحلتَ عن البلاد تَشَهَّدَتْ فكأَنك الداءُ العياءُ رحيلا
أَوسعتنا يومَ الوداع إهانةً أَدبٌ لعَمْرُك لا يُصِيبُ مثيلا

ومنها :

اليوم أَخلفْتِ الوعودَ حكومةً كنا نظنُّ عهودها الإنجيلا
دخلتْ على حكم الوِدادوشَرْعِهِ مِصرًا فكانت كالسُّلال دخولا
هدَمت معالمها وهدَّتْ ركنها وأَضاعتِ استقلالها المأْمولا

ويذكر شوقى أعمال محمد على وإسماعيل ، ويغضب غضبة قوية للأسرة ، وهو فى غضبه لا يستمد من الجذوة الكبيرة الهائلة ، جذوة الشعب ، وإنما يستمد من جذوة ضعيفة ، هى جذوة الأسرة العلوية

وهذا طبيعى فقد كان يعيش حينئذ للقصر . ولم يكن يعيش للشعب ، ومن أجل ذلك قصَّر تقصيراً واضحاً فى مواقف شعبية كانت تستحق منه أن يتغنى فى أثنائها بآلام الشعب ، بل نجده أحياناً ينسى هذه الآلام التى كان يرتجف لها الشعب كما ترتجف أوراق الشجر فى أثناء العواصف . ولعل أوضح ما كان من ذلك موقفه من عرابى بعد عودته من منفاه ، فقد استقبله بقصيدة ، أقلّ ما يقال فيها إنها هجاء لقائد من قادة الشعب ، ويكفى مطلعها الذى يقول فيه :

صَغَارٌ فى الذهاب وفى الإيابِ أهذا كلُّ شأْنك يا عرَابى

ولم يذهب عرابى صاغراً ولا آبَ صاغراً ، بل كان الشعب المصرى ،

ولا يزال ، يعدُّه بطلا فى الذهاب وفى الإياب ، ولكن شوقى لم يكن يشعر شعور الشعب ، وإنما كان يشعر شعور القصر ، وكان القصر غاضباً على عرابى منذ توفيق ، فغضب شوقى عليه ، ولم يخجل أن يرمى البطل وهو صريع .

ونحن نعرف قصة « دنشواى » القرية المصرية الحزينة فقد مرَّ بها جنود الاحتلال فى سنة ١٩٠٦ وصادوا حمامها الداجن فلما حاول أهلها أن يقنعوهم بأن لا يفعلوا فعلتهم ظن أحدهم فى أثناء ذلك أنهم يريدونه بالسوء ، فجرى على وجهه لا يلوى ، فأصيب بضربة شمس فمات . ورأى اللورد كرومر أن يعاقب أهل القرية ، فحوكموا محاكمة وحشية . وصُلبت طائفة منهم ، وسُجنت طائفة ثانية وعُذِّبت طائفة ثالثة . وغضبت مصر وثارت ، وملأ الحقد صدرها والغيظ قلبها ، ومع ذلك لم يستجب الشاعر لكل هذه الثورة وما انطوى فيها من غضب وحقد وغيظ إلا بعد مرور عام على الحادث ، إذ نراه ينظم مقطوعة ، يسميها « ذكرى دنشواى » وفيها يقول :

يا دِنْشِواىُ على رُباكِ سلامُ ذهبتْ بأُنسِ ربوعِكِ الأيّامُ
عشرون بَيْتاً أَقْفَرتْ وانتابها بعد البشاشة وَحْشَةٌ وظلامُ
ياليت شعرى فى البروجِ حمَائِمٌ أَم فى البروج منِيَّةٌ وحِمامُ
نيرونُ! لو أدركتَ عهد كرومرٍ لعرفتَ كيف تُنفَّذُ الأَحكامُ
نُوحى حمائم دِنْشِواى وروِّعى شعباً بوادى النيل ليس ينامُ

وليس من ريب فى أن حادث دنشواى أفظع وأشنع من خطاب كرومر وتعرضه لإسماعيل وأسرته ، ولكن عند من ؟ عند الشعب ، ولم يكن شوقى من الشعب ، فقد نشأ بباب القصر ، وعاش يجرى فى إثر أميره عباس ، فهو لا يحسُّ إلا بما يحسه ، ولا يشعر إلا بما يشعر به ، فليس له إحساس مستقل ولا شعور مستقل ، وهو لذلك يثور حين يُخدَشُ أميره ، ولا يثور حين يُلْطَمُ الشعب على وجهه .

وشتان بين وقدة عواطف شوقى حين تعرض كرومر لإسماعيل وندّد به وبأسرته وعهده ، وحين تعرض كرومر للشعب الأعزل ، ونصب له مقصلته ، وأنزل به سياطه ، وفتح له سجونه . ويكفى أن شوقى نظم فى ذكرى دنشواى مقطوعة ، ولم ينظم قصيدة . فنفسه لم تسترسل ، لأنها لم تشعر من أعماقها بآلام الشعب وهمومه .

وكأنى بشوقى نظم هذه المقطوعة ردّاً على من يلومونه لصمته حيث يجب الكلام ، فلما مرت الفرصة ، ولم يتغنّ البلبل ولم يصدح بأنغام شجية تلائم الموقف ظل يذكر ذلك . حتى إذا دار العام انتهز الفرصة ، ونشر هذه القطعة ليقرأها الناس فى الصحف ، لعله يرضيهم . أو لعله يكفّر بها عن سكوته السابق . ولا بد أنهم دهشوا — كما ندهش نحن الآن — حين رأوا شوقى لا يلم باللورد كرومر إلا إلمام النسيم الخفيف ، وكأنه لا يريد أن يسخط الإنجليز ولا أن يغضبهم ، وهى لباقة أو مداورة تعلمها فى القصر من غير شك ، ولكنها لا تُحَبّ ، لأنها تؤذى النفوس الحرة الكريمة .

على كل حال لم تكن هذه المقطوعة تعبيراً عن عواطف متأججة فى نفس شوقى ، وإنما كانت إرضاء للجمهور الذى يقرأ شوقى فى الصحف ، ويقرأ مدائحه فى عباس ، يدبّجها فى عيد ميلاده وفى عيد جلوسه على أريكة مصر وفى مناسبات مختلفة . فهذا الجمهور الذى كان يفكر فيه شوقى ، والذى كان ينشر شعره فى الصحف حتى يقرأه ويعجب به ، هو الذى كان يدفعه دفعاً ليغنيه على بعض الأوتار التى تهزه . ومن هذه الناحية ينبغى أن نلاحظ شيئاً من التطور فى شعرنا الحديث عند شوقى وغيره ، إذ أخذ هذا الشعر يوجَّه للجمهور بفضل المطابع وشيوع الصحافة والصحف ، وبذلك أصبح الشاعر يفكر فى إرضاء قرائه ، فهو لا يشعر لنفسه فحسب ، ولا لأمرائه فحسب ، كما كان يصنع الشاعر القديم ، بل هو يشعر أيضاً للجمهور الذى يقرؤه ، فهو مضطر أن يتحدث إليه فى همومه وأحزانه ، كما يتحدث إليه فى مسراته وأفراحه . ومن هنا يُضْطَرّ شوقى إرضاء لجمهوره من الشعب

المصرى أن يغنيه بعض متاعبه وآلامه ، وأن لا يظل جامداً فى الحادثة الكبرى تمرّ به ، بل يتحرك معه ويشاركه ، وإذا أفلتت منه الفرصة على نحو ما أفلتت منه فى حادثة دنشواى أخذ يتحين الوقت الذى يدخل فيه ثانية إلى الشعب ليشركه فى أنينه وعذابه ، حتى يقع منه موقع رضاً واستحسان.

فشوقى ينهض بذلك مصانعةً للشعب لا عن عقيدة ولا عن إحساس حقيقى ، إنما هى مصانعة لا غير ، يأتيها موظف القصر الذى تمضى حياته كلها فى مصانعات ، فهو يصانع هنا وهناك ، وهو يسلك طرقاً مستقيمة حينا وملتوية حيناً آخر ؛ليصل إلى ما يريد من تحقيق بعض أغراضه السياسية . وفى الوقت نفسه كان شوقى سجين القصر ، يعيش فى التواءاته ومداوراته مع الإنجليز أحياناً ومع الشعب أحياناً ثم مع من يريدون الرتب والألقاب أو الجاه والمناصب أحياناً أخرى . وكان لا يترك القصر إلا ليجالس إلى أسرته الأرستقراطية أو مع من يشاكلونه من الأغنياء ، ولم يكن يجلس إلى الشعب ، ولا يختلط بأوساطه وأنماطه ، فطبيعى من أجل ذلك كله أن لا يكون بوقاً للشعب ، وإنما يكون بوقاً للقصر وأميره ، يتكلم حين يريد هذا الأمير ، ويصيبه الخَرَسُ حين يريد .

لم يكن شوقى يعيش حينئذ حرًّا لنفسه ، وإنما كان يعيش عبداً لأميره ، وربما كان من أبلغ الدلالة على ذلك موقفه من صديقه مصطفى كامل حين توفّى ، فإنه لم يسارع إلى رثائه ، لأن مصطفى كان قد قطع علاقته بعباس حين وجده يتبع سياسة وفاق مع السير غورست معتمد إنجلترا ، ووجه إليه على صفحات الصحف كتاباً مفتوحاً . فلما هصَر القدرُ غصن مصطفى المورق الفينان ، صديق شوقى ورفيقه[1] ، وقلب الوطن الخافق وفؤاده النابض ، تلكّأ شوقى قليلاً عن بكائه ، ثم ثاب إلى صوابه . ولعل أجمل مراثيه فيه قصيدته :

المَشْرِقانِ عليك يَنْتَحِبَانِ قاصيهما فى مأْتَمٍ والدَّانى

(١) انظر فى صداقتهما كتاب « أبى شوقى » لحسين شوقى ص ١٣٣ .

والقصيدة رائعة من حيث الصور والصياغة ، وما يتخللها من عظات وحِكم يُطِلُّ فيها شوقى من برجه العاجى أو الذهبى على الدنيا من حوله ، وكأن شوقى لا يبكى مصطفى كامل روح الوطن وشعلته الملتهبة ، وإنما يبكى مصطفى كامل الشخصَ وخلقه ودعوته إلى العلم الشريف ؛ ويتسلل من ذلك إلى شئون الحياة والموت ، وينظم مثل هذا البيت :

دَقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ لَهُ إن الحياةَ دقائقٌ وثَوانى

وكل ذلك لأن شوقى كان يخاف الخديوى ويخشى سخطه ، وهو فى الوقت نفسه يريد أن يُرْضى الجمهور وأن يرضى الشعب الذى يقرؤه ، فيحاوره ويداوره ، وتخرج القصيدة على هذه الشاكلة من الحديث فى فلسفة الحياة والموت ، وإن تركهما فإلى الأخلاق وما يتصل بالأخلاق . أما سيرة مصطفى كامل ، وأما خدماته الوطنية ، وأما تعلق المصريين به ، فكل ذلك يوضع عليه ستار ، ويغشاه ضباب .

فشوقى شاعر القصر ، وهو لا يهتم بالجمهور ولا بالشعب إلا حين يجد القصر راضياً عن ذلك ، وقلما كان يرضى القصر ، فالقصر مشغول بنفسه ، وشوقى مشغول به وبالخديوى ، يمدحه فى كل مناسبة : فى العيد ، وفى ذكرى جلوسه على عرش مصر ، وفى ميلاده وحَجّه وزيارته . وهو يوجهه حيث يشاء ، ويتجه معه شوقى حيث يريد ، وكأنه ليس له إرادته ، فإرادة أميره هى العليا ، وهى التى تحركه ، وتقذف به كالكرة يميناً وشمالا ، تقذف به فى وجه الإنجليز وفى وجه اللورد كرومر ، وتسترده لتبعثه روحاً وريحاناً إلى السلطان عبد الحميد صاحب الأمر فى تركيا . ومن هنا تحتلُّ التركيات فى ديوان شوقى فى أثناء هذه الحقبة التى قضاها فى القصر مساحة ومدى أوسع جداً مما تحتله مصر وحوادثها الجسام ، لا لسبب ، إلا لأن شوقى لم يكن يحسُّ مصر وحوادثها ، ولم يكن ملك نفسه وإنما كان ملك أميره ، وقد أراد له أميره أن يولى وجهه نحو تركيا ، فأدار وجهه إلى القبلة وأخذ يرسل بترتيلاته وأناشيده .

وعباس إنما كان يريد من ذلك أن يستدرَّ عطف الخليفة الذى يتبعه ، حتى يعينه ضد خصومه الإنجليز ، وحتى يرضى عنه وعن سياسته ، فانطلق شوقى كالسَّهْم ، يتغنى بالخليفة والخلافة كما يتغنى بالترك فى كل مناسبة. وله فيهم قصائد رائعة حين ينتصرون مع الروس وفى البلقان وحين ينهزمون . ومن طريف ما له من ذلك قصيدته أو موشحته « الأندلس الجديدة » فى الحرب البلقانية ، وفيها صوَّر تالدَ الترك الحربى وتأسَّى على المسلمين فى البلقان ، واستخرج من هذا الوتر الحساس نغماً بديعاً . وله فى الانقلاب العثمانى الذى أودى بالسلطان عبد الحميد قصيدته المشهورة :

سل يلدِزًا ذاتَ القصورِ هل جـاءها نَبأُ البدورِ

وقد نَحا على الخليفة باللائمة ، لأنه لم يَرْعَ حقَ شعبه فى الدستور ، ولم يَسُسْ أمته سياسة حكيمة ، ثم أخذ فى تهنئة الجيش وزعمائه : أنور وشوكت ونيازى .

وعقد شوقى الصلة بينه وبين محمد رشاد الخليفة الجديد . كما كان يعقدها بينه وبين عبد الحميد . وتظهر فى قصائده التركيات هذه كلها عاطفة وثيقة نحو الترك . وقد يرجع هذا فى بعض أسبابه إلى الأصل التركى الذى جَرَتْ دماؤه فيه ، ولكن ينبغى أن لا ننسى عباساً دائماً ، فهو الذى كان يدفعه يميناً وشمالا ، وكان عباس مخلصاً لتركيا ، وكان يزورها فى الصيف ، فكان شوقى يخلص لها أيضاً . وكان يزورها معه ، وتتملَّى عينه بمجالى البسفور وغيره من مثل « جكسو » وهو موضع فاتن فى ضواحى الآستانة ، وله فيه قصيدته التى يفتتحها بقوله :

تحيَّةَ شاعرٍ يا ماءَ جكْسُو فليس سواكَ للأرواح أُنْسُ

وفيها يصف زوارق البسفور ومواطن الجمال فيه ، ولشوقى حاسة رائعة فى الوصف والتصوير . لازمته طوال حياته .

على كل حال تركيات شوقى أثر من آثار عباس ، ولفتة من لفتاته التى كانت تغمر شاعرنا ، وتكتسحه اكتساح السيل ، فقد كان يحسُّ فى أعماقه أنه شاعر الخديوى أو شاعر الأمير ، وفى ذلك يفاخر معاصريه ، فيقول لهم إنه :

شاعرُ العزيزِ وما بالقليل ذا اللقبُ

وكان هذا اللقب كل ما يتمناه شوقى ، وقد تبعته نفسه ، وهو لا يزال شاباً يدرس الحقوق فى مصر وفرنسا . وتبعته وهو موظف فى القصر ، فهو أمنيته فى شبابه وفى كهولته .

فلم يكن لشوقى من رغبة إلا أن يكون ظلا للأمير ، وربما كان لفساد الحياة السياسية فى مصر حينئذ أثر فى توجيه شوقى ، فقد نشأ وهو يرى القصر والأمير كل شىء فى حياة المصريين ، فهما مصدر العز والذل ، والخفض والرفعة ، والجاه والسلطان ، فأراد شوقى أن يقتحم هذا الحصن الأشمَّ ، وأن يكون له مجال فيه . ولو أن الحياة كانت تجرى فى مصر على شكل آخر ، فيه ديمقراطية ، وفيه إيمان بالشعب وعمل صادق على إرْضائه ، لكانت أحلام شوقى غير هذه الأحلام ، ولما رأيناه يجرى منضوياً تحت لواءَ الأمير يسبِّح بحمده آناءَ الليل وأطراف النهار .

الظروف السيئة التى أحاطت بشوقى إذن هى التى ضيقت حدود شاعريته وجعلتها محفوفة بالأشواك فى هذه الحقبة الطويلة من حياته التى تجاوزت عشرين عاماً ، فلم يعد شوقى يملك نفسه . بل أصبح يملكه الأمير كما يملك أى شىء من ثروته .

وليس من شك فى أن عباساً لم يحسن ملك شوقى ، فقد سخَّره لنفسه ، وكان ينبغى أن يسخره لفنه ، وأن يقف منه موقف ملوك أوربا من شعرائها ، على نحو ما وقف أغسطس قديماً من فرجيل ، وعلى نحو ما وقفت حديثاً إليزابث من شكسبير ، ولويس الرابع عشر من معاصريه . وقد تعلم عباس فى

«فيينا» عاصمة الفن والفنانين ولو أنه قرأ تاريخ عباقرتها الموسيقيين : هايدن وموزارت وبيتهوفن لعرف أن أسرة هابسبورج كفلت لهم حياتهم الفنية كما أرادوها ، ولم تجعل منهم تابعين ولا خدماً لها ، بل أحنت رءوسها لهم وأيدتهم بكل ما استطاعت من مال وجاه .

وكان ينبغى لعباس أن يصون كرامة شوقى وأن يمده بالمال الذى يريده ، حتى يتقد هذا القبس المبارك فى شاعره؛ إذن كنا نعد عباساً حامياً للآداب فى عصره ، ولكنه لم يصنع ، ولم يحاول ، بل استمر يشدُّ البلبل من خيط فى لسانه ليتملقه ويداهنه ، ويغنيه بما يشاء ويهوى .

وفى أثناء ذلك كان يصدح بأنغام رائعة كانت خليقة بأن تنبه له أميره ، وهل أروع فى تاريخ شعرنا المصرى من ملحمة شوقى التاريخية التى صاغ فيها تاريخ وادى النيل من الفراعنة إلى محمد على والتى ألقاها فى مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤ ؟ وهل أبدع فى تاريخ هذا الشعر من قصيدة النيل ؟ وكأن عين الأمير لم تكن عيناً كبيرة ، أو كأنما كان عليها غشاوة ، ولم يكن هناك أمل فى أن تنجاب الغشاوة.

فظلَّ صوت الشاعر يتقطع ، ولم يستطع أن يمده حيث ينبغى أن يمتد ، ولم يستطع أن يَعْبُرَ به نوافذ القصر ، ولا أن يخرج به عن صورة المديح إلا قليلا ، فظل صوتاً ضعيفاً شاحباً ، فيه جمال ، ولكنه جمال الأسير ، وفيه روعة ، ولكنها ليست روعة البحر الضارى ، وإنما روعة النبع الضئيل .

وكان النبع كثيراً ما تفيض جوانبه وتتدفق مياهه ، فكان الشاعر يهدر بتاريخ مصر أو بالنيل أو بمديح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان لا يلبث أن يهدأ أو أن يجف معينه ، فيعود إلى سيده ، يغنيه على قيثارة المديح ما يَهْوَى من حمد وثناء وملق ودهان .

ومعنى ذلك كله أن شوقى لم يكن يفرغ لنفسه فى أثناء وظيفته فى القصر ، فكان شعره دائماً لأميره ، وقلما نظم شيئاً لنفسه ، فنفسه تجرى فى إثر مولاه ، وهو عنها لاه ، لا يكاد يردُّها إليه إلا فى الحين البعيد بعد الحين ، ومن يدرى ؟

لعله لم يكن يريد لها أن ترتدّ من هذا الطريق الذهبي الذى تهرول فيه . ومع ذلك فقد كان شوقى يسرّد نفسه أحياناً قليلة ، وكان يتغنّى لها حينئذ بما فهمه أدق الفهم فى حياته الأرستقراطية المترفة وفى أوربا فى أثناء دراسته من تلك الحضارة المادية التى تدفع دفعاً إلى شىء من اللهو والخمر . وظهر أثر ذلك فى بعض شعره قبل سفره إلى أوربا وبعد مجيئه ، ومن نماذجه قصيدته :

حَفٌّ كَأْسَها الحَبَبُ فهى فِضَّةٌ ذَهَبُ

وقصيدته :

رمضانُ وَلَّى هاتِها يا ساقى مُشْتاقَةً تَسْعى إلى مُشْتاقِ

وطبيعى أن يغنّى شوقى لنفسه مثل هذين الصوتين ، فقد كانت حياته مترفة ترفاً خالصاً ، إذ أتاحت له وظيفته فى القصر وجوائز الأمير كل ما ابتغى من ثراء ، وتصادف أن تزوج بسيدة ثرية[1] ، فأعانه ذلك كله على أن يعيش كما يريد من حيث الترف والبذخ واللهو . ويكفى أن نقرأ فى كتاب ابنه « حسين » وصف داره[2] التى اختطّها فى ضاحية المطرية منتقلا إليها من داره بحى الحنفى ليكون قريبا من قصر أميره « قصر القبة » وهى التى سماها « كرمة ابن هانئ » ونطّلع على ما كان بها من الأثاث ومئات الطيور الملونة واللوحات والغرف البهيجة ، لنعرف كيف كان يعيش شوقى معيشة كلها لذة ومتاع .

وإذن فشوقى كان فى معيشته الخاصة أو معيشته الداخلية يأخذ غير قليل من الحرية ، فلم يكن هناك القصر ، ولم يكن هناك خيط سيده الذى يشدّ لسانه ، ولم يكن هناك الجمهور الذى يطّلع على سرائره ، إنما كان هناك شوقى وحده وثراؤه وترفه وحفلاته وما يريد من خمر ولهو .

وشوقى فى ذلك كله يخالف صمت الوقار الذى يصطنعه فى القصر وفى

---

(١) ذكرى الشاعرين ص ٣٣٠ .

(٢) أبى شوقى ص ٣ — ١٨ .

لقاء الناس وعلى واجهات الصحف ، وهذا طبيعى فى الفنانين والناس جميعاً أن تكون لهم شخصية فردية وشخصية اجتماعية ، فليس من الضرورى دائماً أن يكون ما يواجه الفنان به الجمهور هو عين ما يواجه به نفسه . وتتسع المسألة فى الفنانين والشعراء ، لأنهم من ناحية يصورون أنفسهم من حيث إنهم أفراد ، ومن ناحية أخرى يصورون مجتمعهم وما به من نزعات ، وقد يسايرون هذا المجتمع ويخضعون ، وقد يتمردون ويشذون عليه ، وهؤلاء هم المصلحون . ولم يكن شوقى مصلحاً ، وإنما كان عبداً لمجتمعه ولحياته الخارجية ، فطبيعى أن لا يكون سلوكه الفردى مماثلا لسلوكه الاجتماعى ، فهو فى منزله وحياته الخاصة يشبع مزاجه وميوله ، وهو فى القصر والحياة الاجتماعية يشبع مزاج أميره وذوقه ، ويحاول أن يكسب مزاج الجمهور وذوقه ، فيؤلف له أغانى وأناشيد فى تاريخه ونيله ، أو فى الخلافة والإسلام أو فى مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم كقصيدته التى نظمها فى سنة ١٩٠٩ والتى قلّد فيها صاحب نهج البُرْدة :

رِيمٌ على القاع بين البَانِ والعَلَمِ[1] أَحَلَّ سَفْكَ دَمِى فى الأشهر الحُرُمِ

والأخرى التى قلد فيها همزيته :

وُلِد الهُدى فالكائناتُ ضِياءُ وفَمُ الزمان تبسُّمٌ وثَنَـاءُ

وقد وقف محمد حسين هيكل عند هذه الناحية فى مقدمته للطبعة الثانية من الشوقيات، ولاحظ أن شوقى له شخصيتان مختلفتان فى شعره يقول:

« وإنك لتكاد تشعر حين مراجعتك أجزاء ديوانه كأنك أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر ، إلا أن كليهما شاعر مطبوع ، يصل من الشعر إلى عليا سماواته ، وأن كليهما مصرى يبلغ حبه مصر حدّ التقديس والعبادة ، أما فيما سوى هذا فأحد الرجلين غير الرجل الآخر ،

---

(١) ريم: غزال. القاع: الأرض المنبسطة المعشبة. البان: شجر. العلم: جبل.

أحدهما مؤمن عامر النفس بالإيمان ، مسلم يقدس أخوة المسلمين ، ويجعل من دولة الخلافة قدساً تُفيض عليه شئونه وحوادثه وحيَ الشعر وإلهامه ، حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها ، محافظ فى اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة ولكل معنى ولكل فكرة ولكل خيال . والآخر رجلُ دنيا يرى فى المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة وغاياتها ، متسامح تسع نفسه الإنسانيةَ وتسع معها الوجود كله ، ساخر من الناس وأمانيهم ، مجدد فى اللغة لفظاً ومعنى . وهذا الازدواج ظاهر فى شعر شوقى من أول شبابه إلى هذا الوقت الحاضر » .

واستطرد هيكل يفرق بين عناية شوقى بهاتين الناحيتين فى الحياة وعناية أبى نواس بهما ، إذ نلقى فى شعره مثل قوله :

أَلَا فاسْقِنِى خمرا وقلْ لى هِىَ الخَمْرُ ولا تَسْقِنِى سِرًّا إذا أَمْكنَ الجَهْرُ

وقوله :

إذا امْتَحَنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشفتْ له عن عدُوٍّ فى ثيابِ صديقِ

ويزعم هيكل أن هناك فرقاً فى معالجة كل من الشاعرين للناحيتين ، فأبو نواس صاحب لهو ومجون وخمر ، والحكمة عنده عارضة ، تأتى صدفة واستثناء ، أما شوقى فالصورتان متوازيتان عنده ، تستقل كل منهما عن صاحبتها ، فكل منهما جوهرية فى شعر الشاعر وروحه ، وكل منهما قائمة فى لبِّ ديوانه وصميمه. ولسنا ندرى ماذا يريد بالشخصيتين المختلفتين تمام الاختلاف ، أما إن أراد ما يشيع فى هذه الأيام بين النفسيين عن قصة « دكتور جيكل ومستر هايد » وهما شخصيتان لشخص واحد ، تختلف كل منهما فى تصرفها عن الأخرى تمام الاختلاف . فإنه يكون مبالغاً ، بل يكون مخطئاً ، إذ أن المعروف بين النفسيين أن كلا من الشخصيتين لا تدرى عن الأخرى أى شىء من تصرفها ، واختلافُ شخصيتى شوقى ليس من هذا النوع النفسى قطعاً ، إنما هو اختلاف عادى ، كما قدمنا ، نجده عند كل الفنانين أو عند كثير منهم ، ممن عرفنا حياتهم الشخصية وحياتهم الاجتماعية . وليس بصحيح

أن شوقى يختلف فى ذلك عن أبى نواس ، فإن الشاعر العباسى كان يكثر من الخمر وشعر اللذة حقًّا ، ولكنه كان ينظم فى شعر الزهد والحكمة ، وتفسير ذلك بسيط ، وهو أنه كان يطلب اللذة والمتاع ، وكان يفكر فيهما وفى نفسه وحياته ودنياه ، فكان ينتفض ، كما ينتفض العصفور بلله القطر ، إذ يرى الحياة لا تدوم ولا تبقى لأحد .

فأبو نواس فى لهوه وحكمته ليس أكثر من شاعر يطلب اللذة ، ثم يفكر فى عواقب اللذة ، وما يصادف صاحبها بعد حين من حرمان . فحكمته وزهده كل ذلك ناجم عن خمره ولذته ، وليس هناك تضارب فى شخصيته ولا تخالف ، ولا ما يصح أن نفسره بالصدفة العارضة . على أننا إذا أخذنا نبحث أبا نواس جادّين وجدناه ينحلُّ من حيث النظرة العارضة إلى شخصيات متخالفة ، فهناك أبو نواس الماجن ، والآخر الزاهد ، والثالث الرسمى الذى يمدح الخلفاء ويغشى مجالسهم ، والرابع الذى كان يغشى حلقات الدرس والعلماء من المعتزلة واللغويين وغيرهم .

والحقيقة أنه ليس فى شخصيات أبى نواس تعدد ولا اختلاف ، وإنما هى حياة الفنان حين يخلص إلى نفسه ويعيش معيشته الداخلية ، والفنان حين يخرج إلى المجتمع ويتصل بنزعاته وأذواق الناس فيه ويعيش معيشته الخارجية . وهذا نفسه ما نلاحظه عند شوقى ، فليس هناك تعدد فى شخصيته ، وإنما هى حياته الفردية وما يتصل بها من لذة ومتاع وحرية ، وحياته الاجتماعية وما يتصل بها من القصر والخديوى والجمهور ونزعاته ، ولا خلاف بين الحياتين أو تخالف ، وإنما هى خصال شوقى وصفاته .

على أنه ينبغى أن لا نرسل هذا الكلام إرسالا ، فإن حياة شوقى الخارجية كانت تَسْتُرُ دائماً حياته الشخصية الداخلية ، فما فى ديوانه عن لذته ومتاعه قليل قلة شديدة ، وكأن حياته الرسمية كانت تغطى أعشابُها النبعَ كله فى هذه الحقبة من حياته ، فكان من العسير أن تظهر مساربُ لهوه . ولذلك يغلو هيكل حين يقيم المجموعتين من الحياة أو من الخصال متوازيتين مستقلتين ،

فإن الخصال الماجنة لا تكاد تظهر عند شوقى إلا ظهوراً باهتاً ضئيلا نحيلا ، وكأن حياة شوقى الشخصية وخصاله اللاهية تبعثرت فى خضم الحياة الخارجية التى عاشها فى القصر وعلى صفحات الصحف .

٣

فى المنفى

لم يكن من الممكن أن تنقذ رَبَّةُ الشعر شوقى من هذا المعتقل الذى حُبس فيه وحُبست شاعريته معه إلا أن تلمّ بمصر أحداث كبرى، تنزعه فى أثنائها من أحضان هذا السجن الذى كان محبباً إليه. ولم تلبث الأحداث أن ألمت حين أعلنت الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ وكان عباس غائباً عن مصر بتركيا ، فأعلنت إنجلترا حمايتها على الوطن ، وأبت على عباس أن يعود إليه ، وأقامت مكانه السلطان حسين كامل ، وأخذت تحول بين حاشية عباس وبين القصر ، وخاصة ذوى الزُّلْفَة والحظوة الأولى منهم .

وكان شوقى فى مقدمة من يعدُّ المحتلُّ حركاتهم ويراقب خطواتهم، وكان يُظْهر وفاء للعهد القديم ، فهو يحب عباساً ويؤثره على حسين ، ولكن الظروف تغيرت ، ولابد له من المداورة ، فصاغ قصيدته :

أأخونُ إسماعيلَ فى أبنائِه ولقد وُلِدْتُ ببابِ إسماعيلا

وفيها تظهر نفسيته المضطربة ، فبينما يحاول أن يرضى حسيناً نراه يقول (إن الرواية لم تتم فصولا) مشيراً إلى أن الإنجليز لا يزالون يبيّتون شراً بالأسرة العلوية . وثاروا لهذا النذير ، وأوجسوا خيفة من تأثير شعره فى نفوس المصريين فأمروا بنفيه من البلاد ، واختار الأندلس مقاماً له .

ورفعت السفينة سلاسلها من بور سعيد ، وألقت بشوقى وأسرته على ساحل إسبانيا فى برشلونة ، فنزل فى فندق فيها ، ثم أقام فى ضاحية جميلة من ضواحيها

تُدْعَى« ڤلڤدريرا » ، وهى ترتفع كثيراً عن سطح البحر ، فكان يتمتع بهذا الارتفاع ، وبما حوله من غابات الصنوبر ومشاهد الطبيعة الرائعة ، كما كان يتمتع برؤية البحر ، والسفن غادية رائحة على برشلونة ، وإلى ذلك يشير فى سينيته ، إذ يقول :

مُستطارٌ إذا البَوَاخرُ رَنَّتْ أولَ الليلِ أو عَوَتْ بعدَ جرْسِ

وعلى هذا النحو لم يعد شوقى يَحْيَى حياته الرتيبة التى كانت تبدأ من كَرْمة ابن هانئ إلى القصر ، ثم تعود أدراجها من القصر إلى كرمة ابن هانئ ، فهذه الدورة من حياته قد دخلت فى عالم الظلال إلى غير رجعة ، وخلفتها دورة جديدة ، انتقل فيها الشاعر إلى عالم النور حيث لا ترهقه قيود القصر وأغلاله ولا أفاعيه وسمومه .

ومع أن هذه الدورة الجديدة كانت فرحة هنيئة لربّة الشعر فإن شوقى لم يستقبلها بالفرح ، بل استقبلها بالحزن والألم لفراق الوطن وقلة المال وتعذره أحياناً بسبب الحرب. ولم يكن شوقى يعرف قبل ذلك الحزن، فقد كانت حياته تجرى على وتيرة واحدة من اللهو والمرح ، فلما حيل بينه وبين عشّه أحسّ بغير قليل من الألم ، بل أخذ يصهر الألم نفسه ، وكم كان شعرنا المصرى الحديث محتاجاً إلى أن يصهر الألم نفس شوقى ، حتى تصبح نفساً غنية ، وحتى يقترب شوقى من جمهور وطنه ، وما يكتظ به صدره من هموم .

فليحزنْ شوقى ، ليحزن من غربته ، وليحزن لمضايقة الإنجليز له فيما يرسل إليه من أمواله ، وليحزن على عشّه فى كرمة ابن هانئ ، وليحزن على وظيفته فى القصر ، وليحزن على ما أصاب أميره عباساً ، وليحزن لهذا النفى والتشريد ، ففى كل ذلك أحلام جديدة ستحقّق لشعرنا المصرى ، فقد أصبح أمير هذا الشعر منكوداً . ولا يزيد ذلك ربّة الشعر إلا فرحاً على فرح ، فإن صوت شوقى يتكامل له اللحن ، فقد كان البلبل ، من قبل ، أسيراً ، وكان لا يغنى إلا مديحاً متشابهاً فى أغلب أحواله ، ولم يكن يعرف شيئاً من محن

الحياة وآلام الناس . فالآن تمّ له نفسه الشاعرة ، والآن يتم له صوته ، فقد أحسّ الحياة من طرفيها : اللذة والألم ، والنعيم والحرمان .

وظل الشاعر فى « ڤلڤدريرا » حتى أعلنت الهدنة فى سنة ١٩١٨ فأصبح من حقه أن يتجول فى إسبانيا كما يشاء ، فتنقل بين مدنها الكبيرة ورأى مجد العرب الداثر فى قرطبة وإشبيلية وغرناطة . وذهب يبكيهم ويبكى نفسه فى قصيدته السينية المعروفة ، وقد بدأها بحنينه إلى وطنه ، يقول :

اختلافُ النهارِ والليل يُنْسِى ... اذْكُرَا لى الصِّبا وأيامَ أُنْسِى

وسَلا مصر هل سلا القلبُ عنها ... أو أَسَا جُرْحَه الزمان المؤَسِّى

أحرامٌ على بلابلِهِ الدَّوْ ... حُ حلالٌ للطير من كل جِنس

وطنى لو شُغِلتُ بالخلدِ عَنْهُ ... نازعتْنى إليه فى الخُلْد نفسِى

شهد اللهُ لم يغبْ عن جفونى ... شخصُه ساعةً ولم يَخْلُ حِسِّى

واستطرد يتحدث عن الجزيرة والنيل والجيزة والنخيل والأهرام ، وعرض للتاريخ وعبره وما يُطْوَى فيه من تحول الدهر وفناء الدول ، كل ذلك ليصل إلى غرضه من قصيدته ، وهو وصف الأندلس والحديث عن دولها . وقد صور قصر الحمراء بغرناطة تصويراً دقيقاً ، حتى كأننا نشاهده لدقة تصويره ، ووقف يتأسّى على خروج العرب من الأندلس ، ويذكر دخولهم وكيف جاءوا إليه فى سُفن كأنها الأرائك ، ثم خرجوا منه على سفن كأنها اللحود :

ركبوا بالبحار نَعْشاً وكانتْ ... تحت آبائهم هِىَ العرْشُ أمسِ

ومن يقرأ هذه القصيدة يرى شوقى قد حاز لنفسه ثقافة تاريخية عميقة بالأندلس وأمجاد العرب فيها وحضارتهم ونهضتهم بقرطبة حتى كانت منارة أوربا لأواخر عصرها الوسيط . ولم يكتف شوقى بالتعمق فى قراءة تاريخ العرب فى الأندلس فقد عُنى أيضاً بقراءة شعرائهم ودواوينهم .

وكانت أوقات الشاعر فارغة لمدة خمس سنوات ، فقرأ كثيراً عن الأندلس ، وملأ وَعْيه ولاوعيه بتاريخ أبطالها وشعرائها ، فبدأ يكتب قصة «أميرة الأندلس» أو أخذ يعدُّ نفسه لكتابتها ، واختارها حياة المعتمد بن عباد وزوجته الرميكيّة ، وكلُّ من يتصل بالأندلس يعرف أن القطعة الأرجوانية للحياة الدرامية فى الأندلس هى نفس هذه القطعة التى انتخبها شوقى ، فإن حياة ابن عباد لايسمعها شخص مسرودة ، إلا ويرى فيها قصة رائعة .

وأخذشوقى يتعمق فى قراءة الشعر الأندلسى ، ويظهر أنه أُعجب بابن زيدون إعجاباً خاصًّا ، وربما كان فى ذلك دليل على تعديل حَدَثَ فى القيثارة ، فقد كان شوقى لا يهمه الشعر الوجدانى ولا أصحابه قبل ذهابه إلى الأندلس . كانت أكثر صلته بالمتنبى أهم شعراء المديح بين العرب السابقين ، وهذا طبيعى لأنه يتفق وذوقه فى الشعر الرسمى الذى كان يصنعه . أما فى الأندلس ، فلم يعد الشاعرَ الرسميَّ المعروف ولم يعد فى حاجة إلى قراءة المتنبى وأمثاله من الرسميين ، ولذلك رأيناه يتعلق بابن زيدون ويحاول أن يعارضه فى قصيدته النونية المشهورة التى يبث فيها حبه وحنينه إلى : «ولادة» قرة عينه، فينسج على منواله قصيدة بديعة له، وفيها يقول :

لكنَّ مِصْرَ وإنْ أَغضتْ على مِقَةٍ[1] عَينٌ من الخلد بالكافور تَسْقِينا
على جوانبها رَفَّتْ تَمَائِمُنَا وحول حافاتها قامتْ رَوَاقينا[2]
ملاعبٌ مرِحَت فيها مآربُنا وأَرْبعٌ أَنِسَتْ فيها أمانينا
يا مَنْ نغارُ عليهم من ضمائرنا ومن مصُونِ هَواهُم فى تناجينا
ناب الحنينُ إليكم فى خواطرنا عن الدلال عليكم فى أمانينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا فى النائبات فلم يأْخذ بأَيدينا
وما غُلِبْنا على دَمْعٍ ولا جَلَدٍ حتى أَتتنا نَواكم من صياصِينا[3]

---

(١) مقة: محبة. (٢) رواقينا: راقياتنا من السحر. (٣) الصياصى : الحصون.

ونابغىٌّ(١) كأنّ الحشرَ آخرُهُ ... تُميتنا فيه ذِكْراكم وتُحْيينا
نَطْوِى دُجاه بجرحٍ من فراقكمُ ... يكاد فى غَلَسِ الأسْحارِ يَطْوِينا
إذا رَسَا النَّجْمُ لم تَرْقأْ محاجرُنا ... حتى يزول ولم تَهْدَأْ تَراقينا(٢)
بِتْنا نُقَاسِى الدَّواهى من كواكبِهِ ... حتى قعدنا بها حَسْرى تُقاسينا
نحن اليواقيتُ خاض النارَ جَوْهرنا ... ولم يَهُنْ بيَدِ التَّشْتيت غالينا
ولا يحول لنا صِبْغٌ ولا خلُقٌ ... إذا تلون كالحِرباء شانينا
لم تَنْزِلِ الشمسُ ميزاناً ولا صَعِدَتْ ... فى ملكها الضَّخْم عَرْشاً مثل وادينا
أرضُ الابوَّة والميلاد طيَّبها ... مَرُّ الصِّبا فى ذيولٍ من تصابينا

ألم تكن ربّة الشعر محقة فى فرحها حين خلع شوقى عنه الحلة الرسمية ، وخرج من الحياة الضيقة التى كان يعيشها فى القصر ؟ وهل كان من الممكن أن نسمع منه هذا الصوت ونفسه هانئة مغتبطة ؟ لقد أخذ النبع يتفجر تفجراً طبيعيًّا على لسان شوقى ، ولم يعد مقصوراً على المديح وما يشبهه . ثاب إلى حوادثه ونفسه ، ولم تعد الحياة سارة بهيجة مثل هذه الكأس التى وصفها بقوله :

حفَّ كأْسَها الحَبَبُ ... فهى فِضةٌ ذَهَبُ

بل لقد حفَّ الكأسَ دموعٌ غِزار وأنات طوال ، واستيقظت روح الشاعر بعد سبات عميق ، وأخذت تنظر فيما حولها من عِبر التاريخ الأندلسى وشموس الدول الغاربة هناك ، وامتد البصر فى أعماق تاريخ العرب ، فكتب شوقى ديوانه « دول العرب وعظماء الإسلام » .

والتاريخ قطب دائر فى شعر شوقى منذ كتب همزيته التى قدمها إلى مؤتمر المستشرقين فى سنة ١٨٩٤ فليس هذا اللحن جديداً عنده ، إنما الجديد

---

(١) النابغى: الليل. (٢) ترقأ: تكف عن الدمع. التراقى: العظام ما يلى ثغرة النحر.

فيه أنه اختار هذه المرة الدول الإسلامية وعظماء العرب ليبكى أيامهم ، يدفعه إلى ذلك وقوفه على أطلال الأندلس الدارسة .

على كل حال أخذ شوقى يَقْرب إلى نفسه فى الأندلس بأكثر مما كان يقرب إليها فى مصر ، فقد تعوّد من قبل أن يعيش فى الخارج وأن لا يُعْنَى بنفسه ، فليس فى نفسه ما ينبغى أن يعنى به إلا بعض خطرات قليلة فى حياته ، أما بعد ذلك فهو لغيره ، يعيش كما يصرِّفه أميره ، ولا يجد من ظروفه ما يدفعه إلى الإباحة بما فى أطواء نفسه . أما فى الأندلس فقد تخلص من العالم الخارجى ، وأخذ يحس نفسه المحزونة ويصدر عنها فى شعره .

وأشرفت قصة النفى على نهايتها ، وتلكأت السلطات المصرية فى استدعائه بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وكانت هذه فرصة ليجول فى إسبانيا وبين ديار العرب الدارسة هناك . وعفت عنه السلطات فسافر إلى «جنوا» بحراً ، ومنها ذهب إلى « البندقية » فركب أول باخرة تغادر أوربا إلى مصر . وخرجت القاهرة لاستقباله ، وبالغ أهلها فى الحفاوة به . وكان لذلك تأثير كبير فى نفسه .

٤

فى الفضاء الطليق

عاد شوقى إلى وطنه ، فوجد أرضه مخضبة بدماء الحركة الوطنية الذكية ، ووجد كل شىء فيه يتحول ويتغير ، ولا ندرى هل فكر فى العودة إلى القصر ؟ ولكن المؤكد أن أبواب القصر لم تفتح له . فظل بعيداً مع الشعب ، يعيش فى حياته الجديدة

فلتفرحى رَبَّةَ الشعر ، ولتدقّى البشائر ، فإن طائرك لن يعود رهين محبسه القديم ، ولا رهين ذهب إسماعيل وأبنائه ، فقد أخذ يرفرف حرًّا طليقاً فى الفضاء ، وأخذت أجنحته تلمع فيها ألوان الطيف ، وهى ألوان لم تكن تستمد

من القصر وأميره ولا من حياته الأرستقراطية القديمة ، وإنما كانت تستمد من دماء الشعب التى سفحها راضياً فى الحركة الوطنية المباركة سنة ١٩١٩ ومن آماله وآلامه ، وأيضاً من آمال الشعوب العربية جميعاً وآلامها .

أصبح شوقى إلى حد ما ديمقراطياً يعيش مع شعبه والشعوب العربية ، وكان مظهر ذلك فى حياته أن أغلق داره أو كَرْمَته فى المطرية ، واتخذ له كرمة جديدة فى الجيزة . وفرَغ لنفسه وحياته الخاصة ، ونزهاته المختلفة فى النيل وفى الأهرام ، وفى إحدى نزهاته نظم قصيدته المشهورة :

أبا الهَوْل طال عليك العُصُرْ وبُلِّغْتَ فى الأرض أقْصى العُمُرْ

وبنى فى الإسكندرية بيتاً سماه « دُرَّة الغوَّاص » وكان كثير الرحلة إليها فى الصيف وفى الشتاء . وكان يرحل إلى باريس لرؤية ولديه على وحسين فى أثناء تعلمهما هناك ، كما كان يرحل إلى سوريا ولبنان .

وكانت شهرته قد طبَّقت الآفاق ، فأينما حلَّ أقيمت له الاستقبالات ، وكان بيته منتدى الأدباء والشعراء وكبار رجال عصره. وقد زاره فى عام ١٩٢٦ «طاغور» شاعر الهند الكبير ، وقلما يفد على مصر زعيم عربى إلا ويزور الكرمة ، وممن زاروها إسعاف النشاشيبى أديب فلسطين والسيد الثعالبى الزعيم التونسى .

واختير شوقى عضواً فى مجلس الشيوخ . وفى سنة ١٩٢٧ أعاد طبع ديوانه الشوقيات ، فأقيمت له بهذه المناسبة حفلة تكريم كبيرة ، بل حفلات ، اشتركت فيها الدول العربية جميعاً بمندوبين ، نثروا رياحينهم ، بل اشتركوا جميعاً فى وضع تاج إمارة الشعر العربى ، على مفرقه. وممن ساهم فى هذه الحفلات محمد كرد على عن المجمع العلمى العربى بدمشق وشبلى ملاط عن لبنان وأمين الحسينى عن فلسطين وشكيب أرسلان وفندنبرج البلجيكى عن بلده ، وأعلن حافظ باسمه واسم شعراء البلاد العربية البيعة لشوقى :

أمير القَوافى قد أتيتُ مبايعاً وهٰذِى وفودُ الشرق قد بايعتْ معى

وعلى هذه الشاكلة حقق شوقى كل ما كان يطمح إليه من مجد أدبى . وفى أثناء ذلك كان يتصل بالشعب وحياته الجديدة بعد نهضته الوطنية كما كان يتصل بشعوب البلاد العربية ، فقد شارك السوريين فى ثوراتهم الوطنية المختلفة وسجل هذه الثورات شعراً رائعاً . ولم يترك فرصة للإشادة بزعيم عربى أو حركة عربية إلا انتهزها ونوّه فيها بآمال العرب وظلم المستعمرين وما ينالونهم به من عذاب .

وبذلك أصبح أملَ الشباب فى مصر وسوريا وغيرهما ، وأصبح شعره يردَّد فى كل مكان ينطق أصحابه بالضاد ، وظل يتربع عرش إمارة الشعر العربى بقية حياته ، وحتى الآن لا يزال اسمه يدوِّى فى آذان العرب كأنه تراتيل السَّحَر .

ويُخيَّل إلى الإنسان أنه لم تبق لشوقى أمنية تمناها إلا حققها له الدهر ، حتى المغنِّى الذى كان يريده لشعره نثرت مصر كنانتها بين يديه ، ليختار أروع صوت فيها ، يلحِّن له أغانيه ، فمنذ سنة ١٩٢٤ أصبح محمد عبد الوهاب يتبعه كظله فى كرمته بالجيزة ، وفى رحلاته : فى باريس ولبنان ودمشق .

وكانت حياته حينئذ نعيما ومتاعاً خالصاً . ويكفى أن نقرأ ما سطَّره كاتبه أحمد عبد الوهاب عن معيشته الحالمة منذ سنة ١٩٢٠ لنرى كيف كان يسير فى طرق مملوءة بالورود والرياحين ، وكيف كان يجلس فى أجواء معطرة ، وكيف كان يتناول الحياة كؤوساً صافية[1] . فهو يدور فى فلك من المرح والحياة البهيجة التى لا يطمع شاعر فى شىء وراءها ، إذ نراه يتنقل من مقهى إلى مقهى ومن مطعم إلى مطعم ومن دار خيّالة إلى دار خيّالة ، ومن سهرة إلى سهرة ، وكأن جوه كله جو طرب وغناء . وحدَّثنى بعض من كانوا يزورون أبناءه فى كرمة الجيزة أنه كان بها غرف استقبال مختلفة ، وكان لكل غرفة زوَّارها ، وكلهم تقدَّم له كئوس الخمر ، فهى كرمة حقيقية ، وكان عبد الوهاب

(١) انظر « اثنى عشر عاما فى صحبة أمير الشعراء » ص ٨٩ وما بعدها .

لا يزال يغنّى فى إحدى الحجرات . فإذا قلنا إن شوقى اجتمعت له زينة الحياة الدنيا لم نكن مغالين ، بل كنا محقين . وفى أثناء ذلك كان يختلط بالحياة المصرية العامة ، فينزل من سيارته ويتجول فى الطرقات على غير هُدًى ، ويختلط بمجاميع من الأصدقاء فى منزله وفى دور الصحف والنوادى ، ويلزم الشعب فى مواسمه . ولم تكن حياته من حياة الشعب ، ومع ذلك حاول جاهداً أن يشاركه فى مشاعره، وأن يحس معه بأفراحه وأتراحه .

ولعلنا لا نتجاوز الحق إذا قلنا إن حياة شوقى هذه الخاصة لم تكن ذات آثار بعيدة فى شعره فى أثناء هذه الدورة الأخيرة من حياته ، فإن من خصائص شوقى الأساسية أنه لا يشعر بنفسه شعوراً كاملا فى فنه ، وكأنه يحس دائماً أنه يعيش لغيره ، وقد بدأ حياته الفنية بإخضاعها للخديوى ومدائحه ، وما زال حتى حقق أمنيته ، فعاش له حتى فى غزله ووصفه للخمر ، إذ نراه يضعهما فى مقدمات مدائحه ، ولا يفردهما بمقطوعات خاصة إلا نادراً ، فحتى شعره الشخصى لم يكن يفكر فيه لنفسه ، وإنما كان يفكر فيه لأميره . وفَصَلَ عن هذا الأمير وقصره ، ومع ذلك لم يعد إلى نفسه .

فشوقى ليس من الشعراء الأثيرين الذين تنطبع فى شعرهم حياتهم الخاصة ، وإنما هو من الشعراء الغيريين إن صح هذا التعبير ، قد وهب فنه وشعره لا لنفسه وإنما لغيره . ولكن من يكون هذا الغير بعد الخديوى عباس لقد ظل بإسبانيا نحو خمس سنوات وهو فى تيه من الحيرة ، لا يدرى بمن يربط شعره ، ولذلك قلّ شعره هناك قلة شديدة ، فلما رجع إلى مصر ، ووجد الشعب المصرى قد نهض من كبوته ، ونفض الغبار عن عينيه ، وبدأ خطًّا مستقيماً لنهضة مباركة ، أحسّ أنه وجد القطب الذى يربط به نفسه ، فعاش فى هذه الحقبة يختلط به فى النوادى والأسواق ، ويحاول أن يعبر عن حياته ومشاعره .

وإذن فمن الوجهة العامة احتفظ شوقى بعد رجوعه من المنفى بخاصته الفنية المميزة له ، وهى أن يكون شاعر غيره ، كان شاعر عباس ، فأصبح شاعر الشعب المصرى ، بل شاعر الشعوب العربية كلها ، ينبض قلبه بأحلامها

وآمالها وما تكون فيه من جهاد وثورات . أما نفسه فإنه لم يفرغ لها قديماً ولا حديثاً ، إذ كانت طبيعته الفنية تقتضيه دائماً أن يخضع لغيره فى صنع شعره . وإذا كان أميره القديم عباس قد انتهى وانتهت دولته فليتخذ له أميراً جديداً هو شعبه ، بل ليتخذ له أمراء جدداً مختلفين ، هم شعوب العالم العربى . وأمراؤه فى هذه المرة لا يملئون حجره ولا جَيْبه ذهباً ، فهم لا يملكون الذهب ، وإنما يقدمون له حبًّا وعطفاً وقلوباً أغلى من الذهب وأثمن . ولعل هذا ما جعل شعره يفيض بالعاطفة ، فهو يبادل هذه الشعوب شعورها نحوه ، ويعمد إلى قيثارته فيتغنّى مجدها القديم ، ويصور آمالها فى حياة حرة كريمة .

وكل ذلك بعث فيه نزعة ديمقراطية ، ولا نشك فى أن أغانيه التى صدح بها عبد الوهاب جزء من هذه النزعة ، فهو فيها لا يغنّى نفسه ، وإنما يغنى شعبه ، ولعله من أجل ذلك نزل عن أسلوبه العربى الفصيح ليغنى أميره المصرى الجديد ، إذ الشعب إنما يألف لغته العامية البسيطة السهلة ، وإذن فليهبط له حتى ينال كل ما يريد من استحسانه ، وحتى يقع من هواه الموقع الذى يصبو إليه . ونجح شوقى فجرت أغانيه لا على لسان عبد الوهاب وحده ، بل أيضاً على لسان كل مصرى ، فى القصر وفى الكوخ ، وشَدَا بها الرجال والنساء والأطفال .

ونظر شوقى فوجد وراء القمة التى انتهى إليها قمة لم يُعْنَ بالارتفاع إليها العنايَة التى تستحقها ، فحاول بكل قوته وكل ما تملك أجنحته من قدرة أن يبلغها ، ونفخت فى روحه رَبَّةُ الشعر ، فإذا هو يبلغ القمة البعيدة ، ويظفر بحلمه الذهبى الذى فكر فيه فى أثناء شبابه ، حين ألف رواية «على بك الكبير» ، ثم تركها وكأنه أحس إخفاقاً . ولم يكن هذا الحلم سوى رواياته التمثيلية التى دَوَّتْ فى سمع العالم العربى ، تلك الروايات التى أثبت فيها أن شعرنا لا يتخلف عن الشعر الغربى ، وأن شعراءه يستطيعون أن يجاروا شعراء التمثيل فى أوربا .

ونفس هذه الروايات التمثيلية ألفها شوقى لشعبه والشعوب العربية ، فمنها ما يستمد موضوعه من التاريخ المصرى والحياة المصرية ، ومنها ما يستمد موضوعه

من التاريخ العربى والحياة العربية . ولم يكن للأدباء والنقاد فى سنتيه الأخيرتين من حياته حديثٌ سواها ، فهى التى استولت على نشاطهم ومقالاتهم ، وهى التى نالت حين مُثِّلت نجاحاً منقطع النظير . وكان شوقى ينعم بذلك وبأنه حمل راية التجديد بين الشعراء ، فلم يعد شعره نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة ، بل أصبح شخوصاً تُرَى بالعين المجردة على خشبة المسرح .

ومن الغريب أن الأمراض كانت قد اصطلحت عليه فى هاتين السنتين الأخيرتين ، ويحدثنا كاتبه أنه كان يعكف معه على قراءة القرآن الكريم وكُتُب الحديث النبوى ، وكان يُعْجب خاصةبالغزالى ومؤلفاته والجبرتى وتاريخه . ولابد أن نشير هنا إلى سماحة نفسه ، وبشر وجهه ، فقد كان ضحوك المحيّا ، خفيفَ الروح ، وكان يعجب بالدكتور محجوب ثابت ، وله معه فكاهات مبثوثة فى شوقياته .

وأخيراً حول الساعة الثانية فى ليلة ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٢ كفَّ البلبل عن شدوه ، فقد سقطت قيثارة الشعر من يده ، ولَبَّتْ روحه نداء ربه . وارتفع النواح والنشيج فى مصر والأقطار العربية ، وخرجت الأمة المصرية الكريمة تشيِّع شاعرها بقلب ملهوف وعين جارية . وانبرى الكتاب والشعراء فى مصر والشرق العربى يرثون الشاعر ويعزون الوطن فى هذا العَلم الذى طُوى إلى الأبد. وندبته الصحف العربية ندبًا حارًّا. ومن أجمل ما قيل فى رثائه قصيدة بشارة الخورى، وهو يفتتحها بقوله:

قِفْ فى ربى الخُلْدِ واهْتِفْ باسم شاعِرِهِ   فسِدْرَةُ المُنْتَهى أدنى منابِرِهِ

وامسَح جَبينك بالرُّكْنِ الذى انبلجَتْ   أشعَّةُ الوَحْيِ شعرًا من منائِرِهِ

إلٰهةُ الشعر قامتْ عن ميامنِه   ورَبةُ النَّثْرِ قامتْ عن مياسرِهِ

والحورُ قصّتْ شُذورا من غدائِرِها   وأرسلتْها بديلا من ستائرِهِ

ومن بديع ما نُظم فى رثائه قصيدة صديقه خليل مطران ، وقد صوّر فيها تصويراً رائعاً لوعة مصر والعالم العربى فيه ، وتحدّث عن نبوغه ، فقال :

يجْلُو نبوغُكَ كلَّ يومٍ آيَةً ... عــذراء من آياته الغرَّاء
كالشمس ما آبتْ أتتْ بمُجدَّدٍ ... متنوِّعٍ من زينةٍ وضِياء
هِبَةٌ بها ضَنَّ الزمان فلم تُتَحْ ... إلا لأفذاذٍ من النُّبَغَاء
يأْتون فى الفتراتِ بُوعِدَ بَينها ... لِتَهيُّؤِ الأسباب فى الأثناء
كالأنبياء ومَن تأثَّرَ إثْرهمْ ... من عِلْيَةِ العلماء والحكماء
مَنْ مُسْعِدى فى وَصْفها أو مُصْعدى ... درجاتِ تلك العزَّة القَعْساء
ماذا دهانى اليوم حتّى لا أرى ... إلا مكانَ تفجُّعى وبكائى

واستمرَّ يتحدث فى بيانه وبلاغته ، ومثّله فى صورة حيَّة ناطقة بالنيل ، فهو نيل مصر الثانى ، نهلت منه وستظل تنهل كلما تقدمت بها السنون ، وإنه لنيل حقّاً إذ فاض من الأعالى ، من بيئته الأرستقراطية ، واقتحم كل الحواجز التى اعترضته فى عمره الطويل ، وما زال حتّى ارتمى بسيوله فى محيط الموت ، واستقرَّ بين أمواجه .